صدى الحرية

فريق QMT قدسيا الإعلامي

// أسبوعية / ثورية / اجتماعية / منوعة //

ماذا لو أن الأسد استطاع قمع الثورة وبسط نفوذه على معظم الأرض السورية وإن كان الأمر شبه مستحيل مع تحويل الصراع في سوريا إلى حرب بالوكالة، إضافة لرفض المقاتلين للاستسلام على اعتبار ما يقومون به جهاداً في سبيل الله؟ الكثير من التساؤلات التي باتت تثار اليوم عن حاضر الثورة ومستقبلها، والجدل الدائر حول توصيفات الفساد الذي لحق بها وأسبابه، حيث نبقى دائماً في دائرة التساؤلات مبتعدين عن البحث خلف آليات الانتقال الحقيقي لإسقاط نظام الأسد، فوضى المجادلات هذه تزيد الانقسام وبلا طائل، بتصوري أن الأهم هو الإنسان السوري سواءً استطاعت الثورة الخروج منتصرة عسكرياً أم لا هو أنها يجب أن تكون قد أوصلت رسالتها واستطاعت غرس معاني الكرامة داخل المواطن السوري، فهي الفكرة التي قامت الثورة تحت شعارها، وتمثلت بإسقاط نظام سلب الناس هذا الحق.

الابتعاد عن التساؤلات الجدلية والانتقال لمرحلة العمل الحقيقي وفق فكر واضح يؤسس لخلق قيادة خلاقة، تملأ الفراغ وتبتعد عن النظرة الآنية للأمور، مع شعب يدرك أن مفتاح الصراع العالمي ينتهي على العتبة السورية وهو بالوقت نفسه صراعاً مقدساً ساهم الأسد ومعه حلفاؤه في تحويله لهذا الشكل بعد أن كان ثورةً تطالب بحريات سياسية، ليصبح فيما بعد عامل جذب ((مغناطيس)) يشد إليه المسلمين من الشباب من كل الأرض، وهو ما يؤكد أن المعركة طويلة قد تشهد انهيار أنظمة على صخورها.

من ناحية أخرى فقد خلقت الثورة طيلة السنوات الماضية قيمها ومفاهيمها، فيما عادت ببعض الحالات للمبادئ الإسلامية وبخاصة فيما يتعلق بالشأن الاجتماعي، ما يجعل المعركة فكرية وعقائدية بين الطرفين، وصراعٌ من هذا النوع من المستحيل حسمه [illegible]ن ارتبط بجذوره بعقيدة صحيحة -إلا لصالح الحق.

لن تقتلوا ثورتنا

معادلة الموت

مالم نكن نتوقع

Facebook / sadaALhoryehfreequd@gmail.com

الثورة.. ما بين الفرض و الواجب

كانت سوريا بحاجةٍ إلى ثورةٍ هذا مما لا يجادل فيه أحد، حتى النظام نفسه كان لطالما لقن تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات، والعمال والموظفين، وبقية شرائح وفئات المجتمع، كلاماً مكروراً عن مبادئ الثورات وحتمياتها التاريخية وضروراتها الإنسانية، في الكتب والمنشورات والصحف والمجلات وسائر وسائل الإعلام، لكنه – أي النظام – كان يصور الأمر على أنه صانع الثورات ومولدها وقائدها الأوحد، كان يصور الأمر على أنه هو – أي النظام أيضاً – بحد ذاته ثورة، ووجوده وصموده وتصديه ثورة، وقيادته الحكيمة للبلاد ثورةٌ أيضاً، فكيف يتصور أن تقوم ثورةٌ على والد الثورات الوحيد؟

سوريا في ظل هذا النظام كانت بلداً ميتاً بشكلٍ فعليٍ، ومدمر بالمعنى الإنساني والسياسي والحضاري، كان الناس فيه يشبهون الأحياء فيأكلون ويشربون، ويتزوجون وينجبون، ويذهبون إلى ما يشبه أماكن العمل، فيما يذهب الأبناء إلى ما يشبه المدارس، لديهم ما يشبه الشوارع والمؤسسات والملاعب والحدائق والمستشفيات، ولديهم ما يشبه الدولة والسيادة والجيش والأمن والقضاء والحكومات، الأمان والرخاء شكلياً يظلان الجميع، وهؤلاء الناس لفرط تعودهم على هذا النمط واستكانتهم ورضوخهم للأمر الواقع غدا بعضهم لوهلةٍ يعتقد بأنه مواطنٌ حقيقيٌ في دولةٍ حقيقيةٍ، لكن الحقيقة أن أياً من ذلك لم يكن صحيحاً، فسوريا لم تكن دولة، وسكانها لم يكونوا مواطنين إلا في وسائل دعاية النظام، لم ينعموا بالرخاء ولم يتمتعوا بالأمن، لم يحصلوا على الغذاء والرعاية الصحية والتأمين الاجتماعي والتعليم والخدمات، لم تكن لهم سيادة، ولا قرار وطني، ولا حكومة منتخبة ممثلة، ليس عندهم جيشٌ عقائديٌ، ولا جهاز شرطة يحفظ الأمن، أما الاستخبارات فلم تكن لحماية الوطن من الجواسيس والعملاء، والحياة كلها في البلاد كانت تسير بحكم قوانين الطبيعة وحسب.

الأمن والأمان كان في حقيقته خوفاً ورعباً مقيمين في النفوس، الرخاء والبحبوحة كانت أكاذيب ودعايات، أما الحرية والمواطنة فلم تكن إلا عبوديةً واسترقاقاً، الظلم والاستبداد والتخلف والفساد والطائفية تظلل كل شيء، فالنظام الوطني كان في حقيقته احتلالاً داخلياً، يحتل النفوس والأجساد والمكان والزمان على السواء، لا وجود لأي شيءٍ ذي قيمةٍ ومهما كان، فالإنسان كان بلا قيمة، والحياة بلا قيمة، والحرية بلا قيمة، والكرامة بلا قيمة، والعدالة بلا قيمة، وحتى الدولة والنظام بلا قيمة.

وحدها الثورة كفكرة كانت الحل، ووحدها الثورة أيضاً ما كان لها إلا أن تعطي السوريين الأمل بالحياة والحرية والكرامة والعدل والتقدم والمواطنية، ثم جاءت الثورة بالفعل، لم يكن مهماً كيف قامت وبأية ظروفٍ، فالمهم أنها قامت، وهي كانت حتماً ستقوم، لكن هذه الثورة كانت غريبةً وفريدةً في كل شيءٍ، في توقيتها وظروفها وملابساتها، وصمودها واستمرارها، ومسارها وتعرجاتها ومطباتها، وطرق تصدي النظام لها، وموقف العالم منها، لكن المهم فعلاً أنها قامت وهي في الواقع قد تأخرت وكثيراً جداً.

الثورات بطبيعتها تكون عنيفة ومدمرة وهادمة، والثورة السورية لم تشذ عن هذه الحقيقة، بل كرستها ورسختها، وفوق ذلك أدى تصدي النظام الوحشي لها، وتآمر العالم وتخليه عنها، وإجرام وتفرد وتهور العديد من أبناءها والمنتسبين إليها، وعمق وحدة وتجذر الأزمات التي تستهدفها إلى وصول الحال بالبلاد إلى ما وصلت إليه، حتى غدا التشكيك بها وبأحقيتها وصوابيتها وتوقيتها ومن يقف وراءها حديث الشارع الداخلي بشقيه المعارض والموالي لها، وحديث العالم بأسره.

الثورة كفكرة غالباً ما تكون صحيحةً ومحقةً وعادلةً في قضيتها الأولى، نظرياً تكون طاهرة ونقية وبريئة، لكن واقع الثورات ومنها الثورة السورية لا ينبغي بالضرورة أن يكون منطبقاً على نظرياتها ومبادئها ولا منطبقاً على الصورة المتخيلة عنها، وهذا بالضبط ما حدث، والثورة باعتبارها حركة صادمة عنيفة لابد أن تهز المجتمع وتزلزل أركانه وقواعده، وتخرج كل ما دفن وأخفي فيه من أحقاد وشرور وأمراض، وتظهرها إلى العلن وتعممها أحياناً، هذا ما حدث وربما هذا ما كان يجب أن يحدث، وإن كان من المبكر بعد الحكم على ما جرى ويجري، وبكل الأحوال لولا الثورة لما كنا سنعرف أي بلدٍ وأي مجتمعٍ هذا الذي كنا نعيش فيه وننتمي إليه، ولولا الثورة أيضاً لما كنا عرفنا كل تلك النماذج الإنسانية الخيرة والشريرة التي كنا نتشارك وإياها الانتماء، حسنة الثورة الوحيدة قد تكون أنها عرفتنا أنفسنا وعرتنا وأظهرتنا على حقيقتنا، وعرفتنا أيضاً أن النظام الذي نحارب كامن أيضاً وقبل كل شيء في ذواتنا ودواخلنا، ربما لا نكون أفضل من النظام الذي نقاتله، لكننا طالما امتلكنا المعرفة ونعرف أن لدينا القدرة، فيجب أن نمتلك عندها الرغبة في التغيير، كما يجب أن يكون هدفنا الأساسي في الثورة هو ألا نتحول إلى ما يشبه هذا النظام أو أسوء.

في الذكرى الثالثة لانطلاقة الثورة نقف أمام أنفسنا وحيدين محملين بكل الهموم والأعباء والتساؤلات عن المسار الذي سلكناه، وعن المصير الذي سنؤول إليه، وأمامنا خياران لا ثالث لهما، إما أن نقف متفرجين وننتظر ما ستحمله لنا الأيام، وإما أن نسعى لامتلاك المعرفة ونعمل على تكريس القوة لكي نمضي في سبيل التغيير نحو الأفضل، المعرفة والقوة هما ما امتلكه الثوار الأولون، وهو ما نحتاج إلى إعادة امتلاكه الآن، أما آخر ما نحتاجه اليوم فهو أن نبقى على الحياد متفرجين .

اللص والكلاب

بعد دخول الثورة السورية في عامها الرابع لا بد لنا من أن نقف موقفاً صريحاً من الأحداث التي مرَّتْ في تلك السنوات السابقة لمعرفة ما وصلت إليه الثورة بعد تلك السنوات، ونحن لا ننكر حدوث بعض الخلل ناجم عن أسباب خارجة عن إرادة الثوار تتلخَّص كلها في سبب واحد هو أن هذه الثورة كانت (كالطفل اليتيم على مائدة اللئيم) والثوَّار كانوا يعلمون وما زالوا يدركون أن النصر من الله وحده، ولذلك كان من شعارهم الأول (ما لنا غيرك يا الله) ولم نركن إلى بعض الأنظمة العربية أو المؤسسات الدولية التي لم تقدم للثورة غير نظرة العطف أحياناً، أو وقفة الثعلب المتربص بها حينا آخر، ونحن حين نتعرَّض لهذه القضية نكشف اللثام عن خطة النظام في محاولة القضاء على الثورة السورية، ونتحدث عن (استراتيجية النظام) التي انتهجها لاستغلال لعبة المصالح الدولية ليعيد الشعب الثائر إلى بيت الطاعة في محاولته للقضاء على الثورة السورية، ولذلك نقول يجب أن يعلم جميع العالم أننا لن نتخلى عن مشروعية النضال الحر للخلاص من هذا النظام الفاشي النازي الذي تجرَّد من كل القيم الإنسانية، ونحن حين نتحدث عن ذلك نحفظ لبعض الدول مواقف مشرفة، ونحفظ لدول أخرى مواقف مخزية، ونعلم بعد مضي هذه السنوات أن بعض تلك الدول الثرية كانت منزل ومحطّ رحال الهاربين إليها من آل الأسد، ونذكرهم بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عن الساعة، فجعل من علاماتها تطاولهم في البنيان فقال: "حتى ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان" والحمد لله أن بلادهم باتت تفخر بأعلى المباني طولاً في الدنيا، فهنيئاً لهم غَضَبُ الله.

أمَّا ثورتنا التي شَرَعْنا بها فحقَّ نعرف عظمةَ ما وصلت إليه من إنجاز فيجب علينا فقط أن نعلم أنَّ كلاب النظام أخذت تعوي باحثة عن الخلاص من نفق طويل ممتدٍّ حشرهم فيه اللصُّ الذي يعيش في القصر بعد أن سرق الجَمَلَ ثم رمى لكلابه شيئا من عَظْمِه ليشكروه ويدفعوا حياتهم ثمناً لحمايته، أَجَلْ، فذلك اللص يعيش في القصر، وكلابه مصيرها في كل يوم إلى القبر، فما أشد حماقاتهم لكي يدفعوا حياتهم ثمناً لحماية ذلك المعتوه الذي أثبت كلُّ عقلاء العالم أنه أشد الناس حماقةً وغباءً، ذلك اللصُّ الأحمق الجبان يختبئ في قصره وكلابه شاردة في كل سوريا يلتقطها الثوَّار الواحد تلو الآخر.

والعجيب أننا حين نبحث عن انتصارات الأسد المزعومة في مرحلة الثورة السورية من وجهة نظر أعداء الثورة السورية وأبواق النظام نجد أنه لم يحقّق شيئاً منها، وما زال محشوراً في قصره، لكنّ الثورة حققت انتصاراً عظيماً أُلْخِصُه لكم في مسلسل الرعب الذي يبثُّه الثوَّار على الهواء مباشرة في كل يوم للأسد وكلابه، حتى صار لهم حِسٌّ من الخوف والفزع كَحِسِّ الفأرة يحسبون كل صيحة ستأخذهم، وصار كبار أركان النظام محشورين في بيوتهم ومكاتبهم كالفئران، وقد امتنع بعضهم عن الاحتكاك بكثير من أعوانه، خشية من اختراقهم من الثوار، وهذا في حدِّ ذاته نصرٌ مسجَّلٌ لهذه الثورة.

ويجب أن نعرِّج على نصر آخر له قيمته الكبرى، ونحن نتذكر جميعا أن

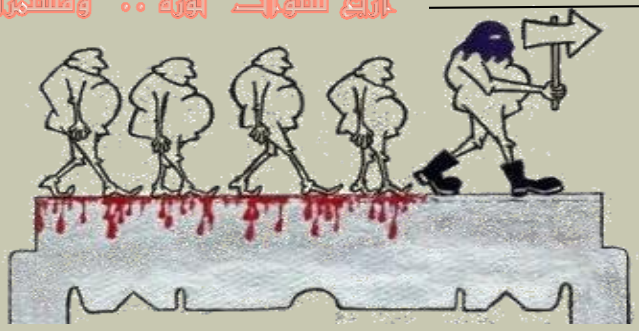

أركان النظام قد زعموا في بدايات الثورة السورية وفي أشهـــــرها الأولى أن تلك الثورة لن تستمر سوى أشهر معدودة وأنه سيتم القضاء عليها، وقد خرجت عجوز النظام الشمطاء (بثينة) معلنةً منذ سنوات أن الثورة قد انتهت (خلصت!!!) لكن الثوَّار صدقوا العهدَ والوعدَ وما زالوا في درب الثورة سائرين، فَصَدَقَ الثوَّارُ وما زالوا صادقين، وكذبَ النِّظامُ وما زال يكذب، وهذه حقيقة في الثورة السورية واضحة للأعمى قبل البصير، وللعدو قبل الصديق، إن الثورة لا تنتهي ولن تنتهي مهما امتد زمنها قبل أن تصل إلى هدفها بإذن الله، والحقيقة الثابتة الآن هي أن الثورة ما زالت قائمة، وأنّ الثوّار قد اعتادوا مظاهر تشييع شهدائهم إلى الجنة فرحين بما آتاهم الله، في حين أن اللصَّ ما زال محشوراً في قصره وكلابه شاردةٌ في الليل والنهار يكابدون من الخوف والفزع واليأس والتعب والإنهاك الذي وصلوا إليه، وهذا جعلهم يلعنون في سرائرهم لحظة وصولهم إلى السلطة أو لحظة تَوَرُّطِهِم بها، ووقفوهم في وجه إرادة الشعب، وبات بعضهم يلعن رُتَبَ الجيش والسَّاعة التي تورَّط فيها بأن يكون ضابطاً في الجيش، وبهذا نكون قد حققنا انتصارين عظيمين، الأول: هو انتصارنا على الخوف، فمن كان يجرؤ مثلاً على لعنِ المقبور حافظ ولَعْنِ نَسْلِهِ المشؤوم، والثاني: هو أننا نَزَعْنَا الخوفَ الذي كان قبل الثورة في صدرونا ثم زرعناه الآن في قلوب أعدائنا، وهذه في حد ذاتها قوَّة، لأن من يدافع عن الباطل جبان رعديد بطبعه، وهو يخاف من كل صيحة ويحسب كل صيحة عليه هي العدو، أمّا الذي يدافع عن الحقّ فهو يلتمس القوة من رضوان الله ويسعى إلى لقاء ربه شوقاً إليه.

هذا جانب مما حققته ثورتنا من (النصر بالرعب) والنصر الأكبر قادم بإذن الله، لكن يجب أن نعرف عدوَّنا أكثر، لأن النصر يتم بإذن الله مع اتخاذ الأسباب، وأهمّ تلك الأسباب في علم الحرب تكون معنوية قبل أن تكون مادية، والتاريخ من يوم بدر إلى الآن يشهد بذلك، فالقوة في الحرب هي قوة النفس قبل قوة العتاد، ومعركتنا مع النظام معركة نفسية، لذلك يجب أن ننتصر فيها على النفس أوَّلاً، لكي ننتصر بعدها على العدو، ويجب أن نعلم أن الشيطان ينزغ فيما بيننا، وما زال أركان النظام يحاولون جهدهم في بعث الفرقة بين الثوار، وبين جبهات المعارضة داخلا وخارجا، ولذلك أقول للجميع لِيَعْمَلْ كلٌّ منكم بصمتٍ وحذرٍ واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان حتى على أقرب المقرَّبين، وليلتمس كل واحد منكم العذر للآخر، فالهدف الآن واحد، وإن لم نلتق جميعاً في الرأي والخطة فيجب أن نلتقي في الهدف، ولذلك أعود إلى القول: ليس من الحكمة أن نبحث — نحن الشعب المظلوم – عن نقاط الاختلاف والشقاق مع الثوار، بل الحكمة في أن يعذر بعضنا بعضاً، فإن لم نتفق في أشياء، فقد اتفقنا في أعظم تلك الأشياء، وهي العمل على إضعاف هذا النظام وتعرية كذبه وفجوره لندفع به بعد ذلك إلى مزبلة التاريخ.

المسار الثوري .. تحولات

تعيش الثورة السورية مناخاً غائماً بعد الكثير من التحولات المتسارعة التي شهدتها في الآونة الأخيرة، ومع ما مرّت به من مدٍ وجزر نتيجة التذبذب في السياسات الدولية والعربية المتفرجة أو ذات المصلحة بانهيار الدولة السورية والانفلات الأمني الذي تعيشه بشكلٍ من الأشكال، والرابط بين حال الثورة وتلك السياسات أن سوريا ومنذ اليوم الأول تحولت إلى مسرحٍ لبروز التصارعات والتجاذبات والتسويات والاستقطابات، ولقد سبق ولمحنا إلى التلويح الروسي بعودة سياسة القطبين، فالواقع يشير إلى بروز معسكرين يقفان على خط التماس وجبهة المعركة والكل يلوح بالعصا والجزرة للطرف الآخر، إلا أن الحقائق والممارسات تؤكد على تناغم القرارات وبأن هناك معسكراً واحداً، يقف في خندقٍ واحدٍ مع نظام الأسد، وما السياسة الروسية إلا غطاءً للرغبة الأمريكية ومن ورائها الحرص على الحليف المدلل في المنطقة ((إسرائيل))، وهذا بدا واضحاً من خلال المماطلة في دعم الثوار وتسليحهم بشكلٍ جدي بل حتى أن تلك اللغة التي برزت قبل الإعلان عن الضربة الجوية بعد استخدم الأسد للكيماوي قد تبددت ما يخفي وراءه الكثير، لكن بعض المناوشات أفادت دولاً على حساب دول إقليمية وأعني بالتحديد ايران والسعودية، فإحداهما عادت منتصرة والأخرى بقيت تجر ذيول التبعية.

إن ما يحصل اليوم يمكن صياغته ضمن قالب الإرادة القوية العالمية لإنهاء تواجد أي قوة عسكرية إسلامية من شأنها أن تشكل تهديداً على الحدود مع الكيان الصهيوني، هذه القوة التي برزت بالصعود واستطاعت بسط نفوذها واستقطاب الشباب من الداخل أو الخارج، والسبيل الوحيد لذلك إطالة أمد الصراع، وإزكاء الطائفية المستعرة أساساً منذ خطاب الأسد الأول في مجلس الشعب، ولتجد ضالتها في الكيان المتأسلم سياسياً إذ لا يمكن محاربة الوجود الإسلامي إلا بقوة فكرية معادية له ذات نفوذ في المنطقة وهي القوة التي تمتلكها إيران، فهي مفتاح الحل إذ أن مصالحها تلتقي بنحو ما مع الإرادة العالمية في محاربة الإسلام، وبلا ريب فالإدارة الأمريكية طموحة أيضاً لاستنزاف القوة الإيرانية على المدى البعيد، ولتستلم ايران مفاتيح دمشق كما سلمت لها مفاتيح بغداد من قبل على أعين العرب والمسلمين، ما يدفعني للحديث عن هشاشة الأنظمة العربية التي كشفتها الثورة السورية وبخاصة الخليجية التي ثبت تبعية قرارها السياسي للغرب، هذه التبعية التي لم تسلم منها فصائل المعارضة السورية إذ إن الداعم وحده من لعب دوراً في التحكم بقرارات الحرب والسلم، فكانت أحد أبرز أسباب التأخر، وليس ذلك على الصعيد العسكري بل وحتى على الصعيد السياسي وما الحال المتردي لبنية الائتلاف السوري إلا مصداقاً وعنواناً لهذا التغلغل في التبعية والنفوذ لتلك المصالح، دون أن نغفل ما أسماه المحللون نجاحاً للمعارضة في مؤتمر جنيف2 وإن لم نلمس أثره ونتائجه.

بالمقابل الثورة السورية لا يمكننا الحديث عن نجاحها بعد في تحقيق هدفها الأساسي الذي قامت من أجله والمتمثل بإسقاط نظام الأسد، لكن يمكن الحديث عن انتصار معنوي حققه الشعب السوري بتنسم معنى الكرامة، والانتصار الأهم في مرحلةٍ كهذه هي الاستمرارية والنجاح بالتحول من ثورةٍ سياسية إلى جهاد ربما غابت ملامحه حتى اللحظة لكنه خطى الخطوة الأولى في صحوته، وباعتقادي أن النجاح سيكون بإسقاط أنظمة بعينها في المستقبل، إسقاط أفكارٍ ونشوء أخرى، أما في الوقت الراهن فمن المبكر الخوض في ملامح تلك الفترة لكني أجدني مضطراً للحديث عن المصالحات التي دخلت بها بعض المدن السورية نتيجة عوامل لعل أهمها غياب الدعم وكفاءة السلاح ولن تكفي السطور في هذه العجالة للخوض فيها، لكن ما يهمنا أن الأسد استطاع من ورائها خلق حالةٍ من البلبلة في نفوس بعض الثوار، إضافةً لتململ آخرين وأرسل بذلك رسالةً من شقين، الأولى لمناصريه لرفع روحهم المعنوية والقتالية، والأخرى للمجتمع الدولي تؤكد أنه لم يزل موجوداً وقادراً على فرض إرادته على العاصمة وغيرها ما يعني أنه لم يزل يمثل الضمان للمصالح العالمية في المنطقة فيما يبرز بذلك خصمه كجهةٍ إرهابية متطرفة، أما المشكلة البتي برزت في السنوات الماضية فهو التحول في الهدف وإن كانت جميع قوى المعارضة تعمل تحت بندٍ أساسي يتمثل بإسقاط النظام إلا أنها استعجلت في التأسيس لكيان دولة إسلامية على أنقاض دولةٍ يعيش مجتمعها الشتات الفكري نتيجة تلك المدة من الضياع بين العلمانية وتقاليد الإسلام، ليصبح الصراع بين حقيقةٍ وحلمٍ مشروع، تراجيدية سياسية أرست بظلالها على الحاضنة الشعبية لكلا الطرفين، إلا أن العودة للخلف باتت غير ممكنة ولا يمكن لأي طرفٍ التفكير بها فالحرب حرب بقاء ووجود.

عملياً لا يمكن تحديد مدة زمنية لانتهاء الصراع العسكري، لكن ما لاشك فيه أن مفهوم الثورة الذي تحول إلى جهاد وإن شابته بعض الشوائب يؤكد العزيمة على المضي نحو الأمام، والنصر ليس بالعدد والعتاد، ولا يغيب عنا أن مقومات النجاح لم تزل قائمة وما انحرف منها قابل للتصويب، وطلاب الشهادة كثر، وأي سياسةٍ تتحدث عن غير ذلك فهي بعيدة عن واقع وسنن الله تعالى في الكون.

ما لم نكن نتوقع ..

في الذكرى الثالثة للثورة : كل ما نخشاه قد وقع ثلاث سنوات مرت ولم تأت الحرية .. ولم تتحقق العدالة .. ولم نرَ المساواة ... طريق طويل هو ذاك الذي بدأه أطفال درعا بأناملهم الغضة، لم يكونوا ولم نكن حينها في حمأة الربيع العربي وسرعة تساقط الأنظمة، نتوقع أن نصل إلى ما نحن فيه الآن، من استعصاء للحل، وصعوبة إسقاط نظام محمي بغطاء دولي، مباشر وغير مباشر، وفيتو إسرائيلي – من تحت الطاولة – كما قال روبرت فيسك الصحفي البريطاني الشهير .

ربما كنا نتوقع بما سمعناه من آبائنا وأجدادنا عن إجرام هذا النظام، وما يمكن أن يفعله من تدمير البلاد فوق ساكنيها، كما فعل في حماة عام 82، ولكن لم نكن نتوقع أن يظهر الفساد مبكراً بين بعض الثوار الذين خرجوا أساساً ضد الفساد .. لم نكن نتوقع أن لا يزيد إجرام النظام المعارضة إلا فرقة وتشرذماً .. لم نكن نتوقع من بعض من أدخلناهم لكي يحمونا وينصرونا، أنهم جاؤوا لكي يحكمونا ويقيموا إماراتهم ودولهم الوهمية على أرضنا، بمعزل عن أن ينقلبوا سيفاً مسموماً يكشف ظهرنا، ويعيق تقدمنا .. لم نكن نتوقع أن تتحول بعض كتائب الجيش الحر إلى قطاع طرق لا هم لها سوى "التشويل" وتهريب المازوت وغيره عبر الحدود .. لم نكن نتوقع أن تصل الخلافات بين بعض قيادات الأركان إلى الضرب واللكم .. وذات الكلام يقال عن الائتلاف والمجلس الوطني .

لم نكن نتوقع أن تتحول سوريا لحلبة صراع باردة بين ورسيا وأمريكا، لكن روسيا تفعل كل ما بوسعها لنصرة حليفها المجرم، بينما لا تتعامل أمريكا مع المعارضة السورية المحسوبة عليها إلا ببرود، بل وشك وريبة، في بعض الأحيان، ولا تبيعهم إلا معسول الكلام والوهم، وهي – أي أمريكا – مترددة وخائفة وتلحس كلامها، دون أي خجل . لم نكن نتوقع أن يظهر هذا الخلاف الحاد بين حلفاء المعارضة الرئيسيين كقطر والسعودية، ليصبح بعدها كل معارض محسوباً إما على هذه الدولة أو تلك، والدولتان هما خطان مستويان لا يلتقيان، ما يعني إضافة معوقات إلى جسم المعارضة المنهك أساساً .

لم نكن نتوقع أن تكون سوريا مسرحاً لحرب طائفية، تذكي نيرانها دول ذات مصلحة بذلك .. و يُخاض على أرضنا حرب دينية بالوكالة، بين كل من إيران والسعودية .. ولم نكن نتوقع في بداية الثورة أن يكون حزب الله الذي يدعي المظلومية التاريخية ، واحتضنه الشعب السوري ورفع قدره، حتى أصبح صور زعيم (حالش) في كل مكان، لم نكن نتوقع أن يكون وحشاً ضارياً وعدواً لدوداً لكل ما يمت لنصرة المظلوم بصلة.

لم نكن نتوقع أن شركاءنا في الوطن مجرمون متعطشون لدمائنا، لديهم عقد نحونا متجذرة منذ مئات السنين، لم نكن نتوقع أشقاءنا في الوطن أن يكونوا طائفيين منغلقين مشبعين بخوف أقلوي إلى هذه الدرجة، رغم كل ما يدعونه من علمانية وانفتاح !!

لم نكن نتوقع أن يجرب علينا نظام " المقاومة والممانعة " كل الأسلحة التي اشتراها من لقمة عيشنا لقتال العدو الإسرائيلي على مدار 40 عاماً علينا. لقد طال عمر ثورة، وظهرت كل مشاكلها على السطح، وبدا كل عفننا منشوراً أمام أشعة الشمس، الكفيلة بتنظيفه وتعقيمه ومعالجته .. ولم يعد لدينا ما نخاف من ظهوره، فكل ما نخشاه قد وقع، وقد رُمينا في وسط اللجة وحيدين، وليس لنا إلا أن نسبح حتى نصل إلى بر الأمان .. وما ساحل الحرية عنا ببعيد .

- كل 4 دقائق...
يعتقل النظام مواطناً
- كل 10 دقائق...
يجرح النظام مواطناً
- كل 13 دقيقة...
يغيّب النظام مواطناً
- كل 15 دقيقة...
يقتل النظام مواطناً
- كل يوم...
يقتل النظام 8 أطفال
- كل يوم...
يقتل النظام 4 مواطنين تحت التعذيب
- كل يوم...
يهجّر النظام 3,154 مواطناً، وينزح 6,762 مواطناً داخل الوطن.

معادلة الموت

عندما يصبح الموت حاكماً وواقعاً يلمسه الناس على غير ما اعتادوا، يتغير مزاج المجتمعات التي هي أساساً تابعة لمزاج أفراد مجتمع ما، وتتحول جميع القيم والمفاهيم، لتتشكل معادلاتٌ جديدة ربما تقوّل أن الثابت الوحيد هي قيمٌ بعينها ــ قيم الإسلام ــ فيما عدا ذلك يبقى متحولات قابلة للتغيير والتعديل، ولقد شهدت الثورة السورية هذه التقلبات سواءٌ في البداية مع مواجهة خطر الموت الذي اعتاد السوريون كغيرهم تجنبه والخوف منه أو حتى تجنب ذكره في أحاديثهم ، فكان ذلك وقتها من المفاهيم السائدة في المجتمع الذي ألِف الحياة قبل الثورة، ليصير الموت في وقتها مجرد حالةٍ فردية لها أسبابها المعروفة ويستلزم معها حالة الحزن والألم، حتى حسبه البعض شيئاً نادراً وإن كان في داخل كلٍّ منا إيمانٌ بوجوده وهيبته التي تسببت في عدم الخوض بذكره، لكن انتقال الثورة السورية من مرحلة التظاهر السلمي والموت الفردي إلى مرحلة الموت الجماعي نتيجة المجازر التي ارتكبها النظام تحول الموت إلى مجرد زائر يقوم بتأدية عمله ليس إلا، وليس هذا فحسب بل تصبح سياسة الموت أو سمها القتل عنوان كل خلافٍ حتى لو كان بين شخصين أي على مستوى الأفراد داخل مجتمع صغير، بدل لغة الصراخ التي كنا ألفناها في المشاحنات، وما حالة التحول لدى الشباب من الوداعةِ والمسالمة إلى النقيض إلا دليلاً على هذا بغض النظر عن التوجه والغاية لديهم من هذا التحول، والمشكلة في تحول السلاح من وسيلة دفاعٍ إلى آلة قتل مع نشوب أي خلاف، بالتالي الخوف من تمكن لغة الموت التي باتت تعيش فينا وتسكننا، هذا لا يعني أن الكثيرين باتوا يألفون الموت، بل أتحدث عن كونه بات أمراً عارضاً وطارئاً لكثرته يبدأ في لحظةٍ وينتهي في أقل منها وليس ثمة وقت للألم، ولنتحدث عمن ماتوا أو استشهدوا بغير لغة الحزن التي اعتدناها...!! فهل تكفي وحدها إشارة التعجب أم لابد من طرح تساؤلاتٍ من شأنها أن تميط اللثام عن الموضوع وتتحدث عن كيفية علاج أسباب التحول في المفاهيم إذ إنك تلحظ من خلال الواقع غياباً لمعاني الإنسانية عن المجتمع السوري؟ أم أنها ملتحفةٌ بستار الواقع المأساوي ما يفرض عليها أن تخفي أي صرخةِ ألمٍ وحزن؟ فمع تعود الناس على شيء قد يصبح جزءاً مألوفاً لديهم تختفي مع الأيام رهبته والخوف منه، وتختفي معها أي مشاعر أخرى اتجاهه، لكن ذلك لا يعني الغياب المطلق للخوف من الموت أو عدم المرور على سيرته، بل على العكس إذ حتماً ما يزال من الناس من ازداد في داخلهم ذاك الشعور بالقلق الرهبة بل ربما نمت أكثر من قبل، خاصةً إذا ما استشعروا باقتراب آلة الموت منهم، وهي حالةٌ لم تصب المدنيين وحدهم بل أصابت المقاتلين ومن الطرفين على حدٍ سواء وكثيراً ما سمعنا عن فرار بعض المقاتلين من الجبهات، حالة الخوف هذه قد يعزى لها سبب الوقوف على الحياد مما يحدث بالتالي صار للموت صورتان، إحداهما بهيئة وحشٍ قاتل، والثانية أنثى يمكن مداعبتها بين الحين والآخر. إن تصور حالِ الناس هذه ينبغي الوقوف عندها والمبادرة لتقويمها وتوجيهها إلى المكان الصحيح، فالموت حقيقة لا يمكن وضعها في إطار الوحش المرعب القاتل أو التلذذ بها، بل ولا حتى وضعها في قائمة النسيان، إذ كيف ينسى وهو أول طريق نحو الله جل في علاه؟ وهو ما ينبغي أن ندركه وبالتالي نعيد حساباتنا على هذا الأساس دون إفراطٍ ولا تفريط، وليصبح جهادنا وثورتنا عنواناً للحياة، إذا ما ترسخ في قلوبنا ووعت عقولنا أن الموت أو الشهادة طريقٌ نحو الخلود وهو ما قاله ربنا تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)).

صمود أنثى

استيقظ على أصوات القذائف التي تهز البلدة والشظايا تتناثر هنا وهناك، هب مسرعاً من سريره، خارجاً من المنزل بلهفة (للنجدة والمساعدة)... زوجته من خلفه تصرخ بأعلى صوتها لتمنعه من الخروج... لكن قراره في أن يخرج كان مقضياً، التفت إليها قائلاً: ((سامحيني))... اشتعلت النيران في جميع أنحاء البلدة، والدخان يتصاعد أجواء السماء... الرصاص يخرق جدران المنزل، وهي متكئة في زاوية من زوايا المنزل، تتنهد بقوة، والخوف يستفز رغبته بالوقوف، يكاد عقلها ينفجر من هول ما سمعت. لهنيه توقف إطلاق الرصاص والقذائف، وهي مازالت في سكون، ترفع رأسها وتنظر من نافذة المنزل الذي أصبحت نافذته منفذاً لشقة أخرى، تُفجعُ بزوجها الملقى على الأرض جثةً هامدة تسيل من حولها الدماء... سكتت مكان وقوفها تتلعثم بالأحرف لا تملك باليد حيلة...

الأفكار تراودها بتفاوت، تصرخ، تبكي ... لا تعلم!!!

طرق باب بيتها بقسوة... ومازال يطرق، وهي لم تحرك ساكناً، إلى أن شرعَ شخصٌ برفع الباب وكسره، وكان رجلاً من إحدى رجالات الأمن ((النظام))، سألها عن سب لامبالاتها بفتح الباب؟؟ ويكرر سؤاله بغضب وهي لا تنطق بأي حرف، لازالت جثة زوجها في مخيلتها، لم يلبث الرجل إلى أن نفذ صبره... وهددها بإطلاق الرصاص عليها... ومع ذلك هي لاتزال على حالها غير مبالية بما يثرثر من الكلام، نظر إلى عينيها وكأنها تقول له ((اقتلني فلم يعد لدي ما أخسره)).

إنه يضغط على زناد سلاحه بتردد، لكن صمود تلك الأنثى منعه من التجرؤ وإطلاق الرصاص عليها وكأن رغبته بقتلها لم تكن إلا وهماً.

يمامة الثورة

دماء العبور

تمتزج الدماءُ بالدموع على الأرض السورية لتشكل ممراً وجسراً للعبور، وإن كان البعض لا يزال يخشى العبور فوق الجسور، ربما لأنهم يحسبون أن الموت يقف على الضفة الأخرى... مشكلة البعض أنهم لم يتنسموا ذاك العبق الذي ينتظرهم حيث المستقبل كما تنسمه هؤلاء الشباب الذين فجروا الثورة بصدورهم العارية، متحدين الخوف من العبور نحو مجهولٍ تخشاه النفس الإنسانية، في واقعٍ كل ما فيه يؤكد أن ركوب الجسور باتجاه المستقبل يعتبر مغامرة انتحار، لكن بين انتحارٍ وانتصار فرق ليس لغوياً فحسب، بل إنه مسافةٌ معنويةٌ تحصن من يدخلها... وفي نفس الوقت يسترجع فيها الإنسان ما ضاع من كرامة، شريطة أن يدخلها بفؤادٍ آمن بالطريق واستشعر النور المنبثق من خلفه، وبين الخوف والعزيمة في المضي، تخلق حالةٌ مما يمكن تسميته في المصطلح الدارج ((غربلةً))، بمعنى تنقية الثورة من شوائبها، ففي المعارك على سبيل المثال يصمد المؤمنون، وفي امتحان يطلب فيه الله تعالى الصبر من عباده يصمد من تبقى، ومع طول المدة وكثرة النزيف يزول الزبد من السطح، وتنقشع الغيوم على سماءٍ حسبناها لن تشرق علينا، وبين شمس الكرامة وشمس المعيشة الضنكة في ظل عالمٍ ممتلئ بالمذلة مسافاتٌ شاسعة تأباها النفوس الكريمة... وليس ذاك بعجيب، فالشعور بالكرامة يستمد من عقيدةٍ دينية مسلمةٍ ذاقت معنى الحرية من خلال العبودية لله وحده، فثارت دمائها صدقاً وإخلاصاً لتصبح مع أولى صرخات الحرية جسراً يصنع التاريخ لدمشق، ويخلد صاحبه، ثم ليبنى من ينبوع الدماء الطاهرة مجتمعٌ سليم أسست له تضحيات عظيمة. صراحةً أردت الحديث عن الشهداء مبتعداً عن الإحصائيات التي تحول هؤلاء الناس إلى مجرد أرقام يبكى على كثرتها ويشحذ البعض باسمها، فحولت الأنظار عن حكاياتهم وبطولاتهم التي لن تتسع لها السطور، قد يكون البعض منهم لم يطلق رصاصةً على ميليشيات الأسد لكن في داخله حنيناً ونيةً مخلصة دفعته لإطلاق صرخة في مظاهرة، أو تسطير كلمة على جدار.... من هنا استمد الرغبة في الكتابة، من إشراقة فكرهم وتحديهم لصمتٍ قديمٍ على الذل الذي ذاقه المجتمع السوري، وتتحول سطوري إلى همساتٍ لأم الشهيد وزوجته، لأهله وأحبابه، لبنيه وبناته، لدمائه التي أصبحت ملامح عالمٍ حلمنا بالعيش فيه، همساتٍ تقول أن الشهيد ليس مجرد رقمٍ أو حكايةٍ نصوغها على سطور، ليس مجرد ذكرى في أذهان أهله تمحى مع مرور الزمن وانقضاء الثورة، بل إن معاني الشهادة باتت معانٍ في قلوب السوريين، تحمل في طياتها الكثير من العِبر، ومع كل عِبرةٍ عبراتٌ تتراوح بين الشوق لوجودهم بيننا، والألم على فقدهم... أردتُ أن أهمس لروح كل سوريٍّ أن وراء كل شهيدٍ قصة، وربما لغزٌ مع تحول حياة هؤلاء من حالٍ إلى حال، فمن طالبٍ إلى مجاهد، من فلاحٍ أو عامل إلى مقاتلٍ يفهم أن الموت بكرامة خيرٌ من العيش بمذلة... فرقتهم المسافات حتماً فهنا شهيد وهناك آخر، ليجمعهم رغبةٌ وإرادةٌ قوية للتغيير والمشاركة في صياغة مستقبل بلادهم... خلف الدماء حكايات، ومن الدماء وحدها تصنع الجسور، وعلى الضفاف في الغد تولد أمة ويتكون مجتمع مختلف بفكره... ببنيته... بعقيدته المسلمة الأصيلة، فالشهادة لا تهدم بل تبني، ولا تطلبُ إلا من استعد لها، ولعل ما يجب أن نهمس به أن جسراً من الدماء الزكية هو مهرٌ رخيصٌ لجنةٍ خرجنا في سبيلها، وليس كلنا من في داخله الشوق لها، ربما لهذا تأخرنا ... من يدري؟

الثورة السورية بلغة الأرقام

-عدد الشهداء الموثقين بشكل كامل: 110,253 شهيداً بينهم 1,960 فلسطيني، و 11,185 شهداء أطفال، و 10,467 شهداء نساء ، 5,003 شهداء تحت التعذيب.

-عدد الشهداء التقديري: 215,000 شهيداً (80% منهم مدنيين)، بينهم 2,100 فلسطيني، و 13,500 شهداء أطفال، و 12,500 شهداء نساء ، و 15,000 شهداء تحت التعذيب (يشمل العدد الوارد في الصور المسربة)

احصائيات الثورة السورية

-عدد الجرحى التقريبي: فوق 172,670
-عدد المعتقلين التقريبي: فوق 254,132 (يشمل جزء من المعتقلين الذين خرجوا)
-عدد المفقودين التقريبي: فوق 96,850
-عدد اللاجئين خارج سورية: فوق 3,410,240
-عدد النازحين داخل سورية: فوق 7,310,000

.....

-مجموع عدد ضحايا العنف 12,719,308 (شهداء، جرحى، معتقلين، مفقودين، لاجئين، نازحين)
-عدد افراد العائلات المتأثرة 60% من تعداد الشعب السوري: 14,839,308 (عائلات الشهداء، عائلات الجرحى، عائلات المعتقلين، عائلات المفقودين، اللاجئين، النازحين)
-عدد العائلات التي أصبحت بدون معيل: حوالي 120 الف عائلة (حوالي 800 ألف فرد)
-عدد الشهداء الكلي التقديري بحسب عدد المعتقلين والمفقودين يفوق 215,000 شهيد .

.....

طليعة الشهداء .. البطل ابو علاء

أينما ذكر اسمه نسمع كلمة الصغير والكبير يردد رحمك الله يا بطل ، أثلجت صدورنا يا أبا علاء. الشهيد البطل إياد البابا ، ولد في بلدة الهامة له من العمر ثلاثون عاماً. مشهود له بخلقه العالي وحديثه الحسن وعفة نفسه وحبه للخير ، كان من حفظة القرآن الكريم وملازماً لصلاة الجماعة في المسجد ، وكان همه الوحيد نشر الدعوة والحفاظ على جلسات العلم وحلقات المساجد ، وله الفضل الكبير في ذلك على بعض شباب جيله وخاصة في قدسيا. كان طموحه بنيل العلم أكبر من عمله الشاق في معمل مواد البناء، نال الشهادة الثانوية بعدما اضطر لترك المدرسة وتأدية الخدمة الالزامية ثم درس العلم الشرعي بكلية أصول الدين في دمشق . وعندما صدحت أصوات الناس بالحرية والعدالة، شارك معهم في ركب الثورة وكان على همةٍ عاليةٍ ومؤمن بنصرها ، كان يحفز الشباب بالخروج في المظاهرات شارك بالكثير من مظاهرات قدسيا والهامة وعمل بالتنسيق بها ، دافع أيضا عن مدينة قدسيا عند هجوم الأمن وقطعان الشبيحة على مظاهرة يوم الجمعة في الشهر الأول من عام 2012 ، بكل بسالة وتضحية رغم تفوق الأمن بالسلاح في ذلك الوقت الذي كانت فيه مظاهرات البلدة فيها سلمية ، كانت مقولته دائماً في أي مجمع من الناس يقولها بإصرار " أنا سأستشهد قبلكم " ، وعندما كانت حملة النظام الشرسة على قرى وادي بردى و منعه لدخول الطحين والأدوية إلى هناك ، سارع إياد لمد يد العون وخيرة شبابنا لإدخال ما يستطيعون من خبز ومواد غذائية وأدوية إلى الوادي رغم خطورة الطريق والحواجز الطيارة سيما وأن قرى الوادي لم تكن محررة بعد ، وفي تاريخ 6/2/2012 كان في عمله الإنساني البطولي المعتاد ، وعند عودته فاجئه حاجز النظام المتواجد في بداية ضاحية قدسيا ، والجدير بالذكر هنا ، أن بلدة قدسيا لم تكن مطوقة تماماً بالحواجز آنذاك . قام عناصر الحاجز بإنزاله ورفيقه من السيارة التي كان يقودها شهيدنا ، و بدؤوا يشتمونه بألفاظهم النابية ويستفزونه بشتى الطرق والأساليب إلى أن قام ضابط الحاجز المسؤول بضربه وتهديده بالاعتقال ، وسب دينه والذات الإلهية فلم يطق إياد أن يسمع هذا الكلام ، فإذا به و بكل ما أوتي من قوة وعزيمة وبخفة عالية يباغت عنصر الحاجز ويأخذ منه بندقيته و يفتح النار عليهم ، ليردي هذا الضابط وجندي مقتولان وجَرحَ آخر ، واستطاع هذا البطل أن يفتح الطريق لصديقه كي لا يقع بيد العصابة الأسدية المجرمة، وآثره على نفسه ، فنجا رفيقه لكن أبا علاء سرعان ما لفظ أنفاسه واستشهد برصاص أحد عناصر الحاجز، ولم يسلم جثمانه الطاهر فوراً إلى ذويه فالحقد والغل من شيم هذا النظام ، فظل جثمانه ستة عشر يوماً في حوزتهم إلى أن تم التفاوض عليه وتسليمه إلى أهله بتاريخ 18/2/2012 ، وأقيمت له مراسم تشييع تليق بالأبطال ، ثم ووري الثرى في مقبرة الهامة .

شهيدنا الغالي لن ننساك وعلى درب بطولتك ماضون ، اختزلت بدمائك الطاهرة قصة شعب أبى أن يستكين للظلم والاستبداد ، نلت ماكنت تتمناه ونحسبك عند الله بمقام الشهداء بإذن الله، سائلين المولى عز وجل أن تكون في عليين مع الأنبياء والشهداء والصالحين .

كاريكاتير العدد